بسم الله الرحمن الرحيم

شرح العقيدة الواسطية

معالي الشيخ الدكتور

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عضو هيئة كبار العلماء

وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

تاريخ المحاضرة:	**1425-1426**	**المكان:**	**جامع الإمام محمد بن عبد الوهاب – حي السلام – الرياض**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد: فيقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: (فصل، ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود) وهذا تقدم الكلام فيه بإثبات الصفات، الكلام لله -جلَّ وعلا- من الكتاب والسنة؛ من الكتاب في أدلة القرآن، ثم الفصل الذي يليه من أدلة السنة، وأن مذهب أهل السنة وسلف الأمة إثبات صفة الكلام لله -جلَّ وعلا- على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه قديم النوع، وأنه -جلَّ وعلا- لم يزل متكلمًا، وإن كان حادث الآحاد، متجددًا تبعًا لمشيئته -جلَّ وعلا- (منه بدأ) بدأ البدء معروف الذي يقابله النهاية وبالتخفيف منه بدا، يعني: ظهر، ويجوز هذا وهذا، (وإليه يعود) يعني في آخر الزمان إذا رُفع، وأن الله -جلَّ وعلا- تكلم به حقيقة، يعني لا مجازًا كما يقول المبتدعة، وإنما هو حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد -صلى الله عليه وسلم- هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، لا كلام جبريل، ولا كلام محمد، ولا كلام الشجرة بالنسبة لتكليمه -جلَّ وعلا- لموسى، ولا كلام خلقه في غيره، فتكلم به لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بإنه حكاية، وهذا تقدم الكلام فيه والقول بأنه حكاية هو قول الكُلاَّبِيَّة، وذكرنا في درس مضى أن العلماء يقولون: يقول الله -جلَّ وعلا- حكاية عن فلان عن فرعون مثلاً أنه قال: **{أنا ربكم الأعلى}** هذا فيه مخالفة أو ليس فيه مخالفة؟ فيه مشابهة في اللفظ، فيه مشابهة لفظية، وإذا دققنا وجدنا أن هذا الكلام لا إشكال فيه.

طالب: .....

لكننا لم نسمع فرعون يقول، إنما سمعنا قول الله -جلَّ وعلا-.

طالب: .....

معروف أن تسمعوا إلى قول العبد الصالح.

طالب: .....

لكن هل فرعون قال هذا بلفظه؟ قال أنا ربكم الأعلى باللفظ عربي هو؟ الله -جلَّ وعلا- ينقل لنا كلام فرعون ولم نطلع عليه ولم نسمعه إلا بواسطة كلام الله -جلَّ وعلا-، فالله -جلَّ وعلا- هو المتكلم بهذا الكلام حقيقة عن فلان، فهو حكاية عن كلام فلان لا إشكال، إلا أن في هذه اللفظة مشابهة لقول الكُلاَّبِيَّة، إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة كما هو قول الأشعرية يقولون عبارة، والقرآن حكاية عند الكلابية وعبارة عند الأشعرية، لماذا؟ لأنهم لا يقرون بأن الكلام الإلهي حرف وصوت يسمع، وإنما هو الكلام النفسي عندهم، وأما هذا فهو حكاية عن كلام الله أو عبارة، حتى قالوا: إنه لا يختلف تكلم في الأزل بكلام نفسي ولا يتجدد، فكلامه قديم ويقتصرون على قدم النوع، وأنه لا يتكلم متى شاء إذا شاء، تكلم دفعة واحدة، هي التي أنزلت في الكتب؛ فإن عُبِّر عنها بالعِبْرانيّة صار توراة، وإن عُبِّر عنها بالسِّرْيانية صار إنجيلاً، وإن عبر

عنه بالعربية صار قرآنًا، وعرفنا أن هذا الكلام ليس بصحيح، بل الواقع يرده مقتضاه أن الله -جلَّ وعلا- أنزل على موسى وعلى عيسى نظير القرآن من الفاتحة إلى الناس، إلا أنه بلغاتهم، فعندهم سورة الإخلاص وعندهم آية الكرسي وعندهم أواخر سورة البقرة، إلا أنها بلغاتهم، وهل هذا الكلام صحيح، يعني: لو جئنا بشخص يتقن الترجمة إلى السريانية أو العبرانية فترجم مصحفين واحد إلى العبرانية وواحد إلى السريانية، وطبقناه إلى التوراة والإنجيل يحصل أو ما يحصل؟ ما يمكن أبدًا، وهذا القول يرده الواقع، وقصة بدء الوحي ترده أيضًا، لما أنزل على النبي -عليه الصلاة والسلام- نزل جبريل بسورة إقرأ من عند الله -جلَّ وعلا- وذهب بها محمد -عليه الصلاة والسلام- يرجف بها فؤاده، وفي رواية: بوادره، فعرضها على خديجة في القصة المعروفة في أول الصحيح، ثم إن خديجة كلمت ورقة بن نوفل يقرأ الكتب السابقة ويترجمها، يقرأ التوراة والإنجيل ويترجم إلى اللغة العربية، يترجمها، فلما سمع من النبي -عليه الصلاة والسلام- قالت: اسمع من ابن أخيك، لما سمع سورة اقرأ، هل قال: هذا الكلام هذا موجود عندي الآن في التوراة والإنجيل لما نترجمهما إلى العربية؟ هذه السورة موجودة عندي؟، قال: هذا الناموس -يعني جبريل عليه السلام-، هذا الناموس الذي نزل على موسى، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك أن يكون كلام الله حقيقة، يعني تقرأ في المصحف كلام الله وتقرأ عن ظهر قلب حفظًا فهو كلام الله المسموع، كلام الله، المقروء كلام الله، المكتوب كلام الله، المقصود أن هذه كلها كلام الله -جلَّ وعلا- ولا يتغير، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، يعني لما تسمع حديث وتحفظه وتلقيه على الناس، هل أنت الذي قلت هذا الحديث؟ أو آية مثلاً أو بيت شعر، يعني لما تقرأ كلام شعر ابن هانئ مثلاً، وفيه من الكفر ما فيه، حينما يخاطب الخليفة، ويقول -تعالى الله عما يقول علوًا كبيرًا-:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار

يعني هل هذا ينسب إليك أو ينسب إلى من قاله؟ ينسب إلى من قاله بلا شك، وإلا كل من قاله كفر؛ لأن هذا الكلام كفر فهذا الكلام إنما ينسب إلى من قاله، والآثر والحاكي ليس هو المتكلم، فلما تقول مثلاً في قصة ماعز تروي وقال ماعز: إني زنيت، جاء ماعز إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: إني زنيت، وتحكي هذه القصة، هل أنت زنيت؟ لا، لكن من باب الأدب في هذه المواطن التي نسبتها إلى النفس، فيها ما فيها، الأدب أن لا تُحكى بلفظها، بل مقرونة بمن قالها مع صرف الضمير من المتكلم إلى الغائب، مثلما قالوا في قصة أبي طالب لما عرض النبي -عليه الصلاة والسلام- الشهادة عند الموت، آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، لكن

لو أن الراوي قال أبو طالب: أنا على ملة عبدالمطلب، يكفر؟ ما يكفر؛ لأنه يحكي كلام غيره، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني كما تقول المعتزلة، ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف كما تقول الأشعرية، فتحرر لنا من هذا خمسة مذاهب أو ستة؛ أهل السنة كلام الله منزّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم به حقيقة يسمع بصوت وحرف، قديم النوع حادث الآحاد، يتكلم متى شاء إذا شاء. كلام الكُلاَّبيَّة قالوا: هذا الكلام الموجود عندنا حكاية عن كلام الله، وليس هو كلام الله. والأشعرية يقولون: عبارة. المعتزلة يقولون: الكلام الحروف دون المعاني. والأشاعرة أيضًا من قولهم أنه المعاني دون الحروف، وتقدم لنا ذكر المذاهب والأقوال في صفة الكلام، ولا مانع من إعادتها نقلاً عن شرح الطحاوية؛ يقول شارح الطحاوية: افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال: أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنًى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عُبِّر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كُلاَّب ومن وافقه كالأشعري وغيره، ويقولون: القرآن عبارة عن المعنى إلى آخر كلامهم الذي سبق ذكره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام.

وخامسها: أنه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا وهو قول الكَرَّامِيَّة وغيرهم.

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائمة بذاته يقول وهذا يقوله صاحب المعتبر هِبَة الله بن مَلْكَا الطبيب الفيلسوف وإليه يميل الرازي في المطالب العالية أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته.

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنىً قائم بذاته هو ما خلقه في غيره وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، مشترك بين المعنى القديم بالذات القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه.

وتاسعها: أنه –تعالى– لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، ويتكلم به بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة، يقول ابن القيم في النونية:

والله ربـــي لـــم يـــزل متكلمًـــا وكلامـــه المســـموع بـــالآذان
صـدًقا وعـدلاً أحكمـت كلماتـه طلبًـــا وإخبـــارًا بـــلا نقصـــان
ورسـوله قـد عـاذ بالكلمـات مـن لـدغ ومـن عـين ومـن شـيطان
أيعاذ بالمخلوق حاشاه من الـ إشـــراك وهـــو معلِّـــم الإيمـــان

الاستعاذة بغير الله شرك، والنبي -عليه الصلاة والسلام- استعاذ بكلمات الله التامة، ولو كانت كلماته التامة مخلوقة لكان النبي -عليه الصلاة والسلام- قد استعاذ بمخلوق فأشرك وحاشاه:

أيعاذ بالمخلوق حاشاه من الـ إشـــراك وهـــو معلـــم الإيمـــان
بل عاذ بالكلمات وهي صفاته ســـبحانه ليســـت مـــن الأكـــوان
وكذلك القرآن عين كلامه الـ مســـموع منـــه حقيقـــة ببيـــان
هو قول ربي كله لا بعضه لفظًـــا ومعنًـــا مـــا همـــا خلقـــان

وابن القيم -رحمه الله- نقل عن القحطاني صاحب النونية نقل عنه بيتين ولم يشر إليهما أي شارح من الشراح، بل شرحهما على أنهما من النونية، مع أن ابن القيم عزاهما عزوًا واضحًا:

ولقد أتى في نظمه من قال قو ل الحـــــق غيـــــر جبـــــان
هـو قـول ربـي كلـه لا بعضـه ومـــــدادنا والـــــرَّق مخلوقـــــان

لأنه وُجد مِن بعض الغالية في الإثبات قالوا: إن الورق قديم، هذا الورق الذي يُكتب به المصحف قديم، الجلد الذي يجلد به المصحف قديم، هذا لا شك أنه غلو، فنفرق بين الورق والجلد والحبر هذه كلها أمور محدثة على مر الزمان، وهي أيضًا مخلوقة؛ لأنها مما يصنعه الإنسان **{والله خلقكم وما تعملون}** على كل حال مثل هذه الأمور لا بد من التفريق بينها، فلا نغلو في إثبات ما لم يثبت عن الله وعن رسوله، ولا ننفي ما أثبته الله ورسوله، ذكرنا قول ابن حزم فيما سبق، وأنه القرآن عندنا أربعة أشياء، أربعة قرآنات ليس بواحد ولا اثنين ولا ثلاثة، عند ابن حزم أن أربعة أشياء، كلها تسمى قرآنًا هذا الذي يُتلى، الثاني المكتوب في المصاحف قرآن غير المتلو المحفوظ في الصدور غير المتلو وغير المكتوب، الرابع المعنى القديم، وفي هذا يقول ابن القيم -رحمه الله-:

وأتى ابن حزم بعد ذاك فقال ما للناس قرآن ولا اثنان
بـل أربـع كـل يسـمى بـالقرآ ن وذاك قـــول بـــيّن الـــبطلان
هـذا الـذي يُتلـى وآخـر ثابـت في الرسم يدعى المصحف العثماني
والثالث المحفوظ بين صدورنا هـــذي الـــثلاث خليقـــة الـــرحمن
والرابـع المعنـى القـديم كعلمـه كـــلٌّ يُعبَّـــر عنـــه بـــالقرآن

يقول ابن القيم:

وأظنـــه قــد رام شــيئًا لــم يجــد عنـــــه عبـــارة نـــاطق ببيـــان
إن المعـــين ذو مراتـــب أربـــع عقلــت فــلا تخفــى علــى إنســان

يعني الأمور المعينة الموجودة لها مراتب أربع: وجود في الأذهان، وجود في الأعيان، الوجود في الأذهان هو المحفوظ، والموجود في الأعيان يتنوع، إن وُجد في الأعيان صوت صار شيئًا، إن وُجد في الأعيان مكتوب، صار شيئًا كأنه رام هذا ولم يستطع التعبير عنه، لكن الموجود في الأذهان هو غير الموجود في الأعيان، يعني المحفوظ في الذهن في القلب هو غير المسموع في الآذان إذا تُلي هو غير المقروء، إذا كُتب هو نفسه، فأهل العمل حينما يقولون مثل هذا الكتاب مثلاً يعني شرحنا هذا في أول درس أما بعد فهذا..، الإشارة في الأصل أن تكون إلى موجود في الأعيان محسوس، يعني يشار إليه، لكن العلماء حينما يكتبون المقدمة بعد الفراغ من الكتاب يشيرون إلى موجود في الأعيان، لكن بعضهم يكتب المقدمة قبل الكتاب، ويقول: أما هذا فهو يشير إلى ما في الأذهان، وهل الذي في الذهن غير موجود في الأعيان، يعني: هل يختلف ما في الذهن عما وُجد في الأعيان، قد يقول قائل: وقد يختلف؛ لأنه يغير في ذهنه شيء وغيَّر، لكن إن أشار إليه بالتفصيل، إن أشار إليه إجمالاً فهذا لا إشكال فيه، لكن أشار إليه بالتفصيل، فهذا كتاب، ثم غير فيه لا بد أن يغير في الإشارة وإلا اختلف عن الواقع، لو قال: أما بعد، فهذا كتاب في تفسير كلام الله -جلَّ وعلا- ثم شرح البخاري، هل نقول: هذا اختلف ما في الذهن عما في الأعيان؟ هذا اخلتف في وقته لما قال: هذا كتاب في تفسير كلام الله -جلَّ وعلا-، إما أن يكون كاذبًا أو يكون صادقًا؛ فإن كان كاذبًا فلا عبرة بكلامه، وإن كان صادقًا فلا بد أن يغير هذا الكلام ليطابق الواقع، وعلى كل حال مع مخالفة الواقع لا يمكن أن يوصف بالصدق؛ لأنه كان صادقًا بالحقيقة وغيَّر فلا بد أن يغير المقدمة، فالموجود في الأعيان صورة عما في الأذهان، وعلى كل حال سواء قلنا الآن لما نقرأ كلام ابن القيم:

وأتــى ابــن حــزم بعــد ذاك فقــال مــا للنـــــــاس قـــــــرآن ولا اثنـــــــان
بـــل أربـــع كـــل يســـمى بـــالقرآ ن وذاك قـــــول بـــــيّن الــــبطلان

هل نقول: هذا غير ما نطق به ابن القيم في نونيته وأملاه على الناس أو كتبه هو بيده، هو هو، وغير ما يحفظه أهل العلم في حوافظهم من هذه النونية هذا غيره يعني لما تقول أنت:

وأتــى ابــن حــزم بعــد ذاك فقــال مــا للنـــــــاس قـــــــرآن ولا اثنـــــــان

تقول: أنا قلت هذا؟ ابن القيم الذي قال أو تقول: إن ابن القيم خلقه فيّ؟ ما يمكن أن يقال هذا، ما يمشي هذا الكلام ولا على المجانين، لكنهم قعّدوا قاعدة بنوها على المبالغة في التنزيه فقالوا: تُنْفَ عنه الصفات؛ لأنه إذا أثبتنا له الصفات أشبه المحدثات هم مشوا على هذه القاعدة فخالفوا

المعقول والمنقول بسببها، ووقعوا في حيرةٍ لا نهاية لها، وكثير منهم رجع عند وفاته وبعضهم صرّح بأنهم على غير هدى، كيف يقول ابن حزم: عندنا أربعة قرآنات؟ هل يمكن أن يمشي هذا على أغبى العوام، فضلاً عن أذكاهم، فضلاً عن طلاب العلم أو العلماء؟ يعني يا إخوان ترى ابن حزم غاية في الذكاء، يعني عنده ذكاء خارق، لكن هذه العقول وإن بلغت ما بلغت من الذكاء ولكنه تخلف الذكاء لا تستفيد فقد يكون الذكاء وبالاً على صاحبه؛ لأنه يسرح به كل مسرح منكبًا عن نصوص الوحيين، ثم يضيع ويتيه، يعني لو كان الإنسان يعتمد على كونه خِرِّيْت في الطرق، ثم بعد ذلك يترك الجواد ويضرب يمينًا وشمالاً من غير طرق الناس، وهذا في المحسوسات لا شك أنه يضيع، وشخص من أعرف الناس بالطرق، ثم بعد ذلك مشى من الرياض إلى بلد ما، وفي قضية في المحكمة يوم الأربعاء، قال: ندرك الدوام، فلما رأى أنه إذا سلك الطريق المعبَّد الذي يسلكه الناس يطول عليه الوقت، فأراد الاختصار تاه وضل الطريق، ما وصل إلى المحكمة إلا يوم السبت، ومع ذلك لو انتظر ومشى مع الناس وزاد في الطريق لمدة ساعة أو نصف ساعة عما توقعه وصل في الوقت، فهذه العادة فيمن يترك الوحيين ويعتمد على عقله وذكائه، ويعتمد على كلام من يتهمهم بالذكاء والعبقرية، لا طريق غير طريق الرسول -عليه الصلاة والسلام-، غير الصراط المستقيم لا تدوّر، لا بد أن تضيع، وهؤلاء عباقرة كيف ضاعوا كيف ضلوا؟ وأتوا بكلام يضحك الصبيان، لماذا؟ لأنهم تركوا الصراط المستقيم وعدلوا إلى غيره فضلوا وأضلوا.

طالب: .....

ابن حزم لو تقرأ بعض كلامه تقول: سبحان من ألهمه حينما يرد على بعض العلماء في مسائل الفروع، تعجب كيف خلص من هذه المسألة؟ ثم يأتي يقول: عندنا أربعة قرآنات في قول لم يسبق إليه ولا عقل ولا نقل يسنده.

يقول الشارح بعد أن ترجم لابن حزم يقول: هو الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري المشهور عالم الأندلس إلى آخره، وأطال في ترجمته، ثم ذكر قوله، يقول: حيث ذكره الناظم فلا بد من بيان معناه، فقوله: بل أربع كل يسمى بالقرآن؛ هذا الذي يتلى، والثاني المكتوب في المصاحف، والثالث المحفوظ في الصدور، والمراد بالرسم الخط، وقوله: هذه الثلاث خليقة الرحمن وهذا القول من أبطل الأقوال التي قيلت في القرآن، يقول الشارح: وقوله في القرآن: مهجور، لا نعلم قائلاً به، وهو من جملة مجازفته وتهوره -رحمه الله-، ولكن الناظم لما ذكر جميع ما قاله الناس في القرآن العظيم ذكر هذا القول؛ لأنه من جملة الأقوال التي قيلت، وإلا فشيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- قد ذكر في المسألة المصرية أقوال الناس في القرآن فبلغت سبعة أقوال أو ثمانية، ولم يذكر قول ابن حزم هذا، وحيث ذكره الناظم فلا بد من بيان معناه، فقوله: بل أربع، كلٌّ يسمى بالقرآن، هذا الذي يتلى، والثاني المكتوب في المصاحف، والثالث

المحفوظ في الصدور، والمراد بالرسم الخط، وقوله: هذي الثلاث خليقة الرحمن، وهذا القول من أبطل الأقوال التي قيلت في القرآن؛ ولذلك قال الناظم: وذاك قول بيّن البطلان، قوله: والرابع المعنى القديم كأنه –والله أعلم– وافق الأشاعرة والكُلاَّبِيَّة في إثبات المعنى النفسي، وقد تقدم القول في المعنى النفسي بما أغنى عن الإعادة.

وقول الناظم: وأظنه قد رام شيئًا لم يجد إلى قوله أن المعين ذو مراتب أربع، أي أن المعين كزيد مثلاً له أربع وجودات: وجود خارجي ووجود ذهني ووجود لفظي، أي في اللفظ إذا تلفظت بلفظ زيد، ووجود الرسمي أي الخطي، فهذه الوجودات الأربعة، وهي التي ذكرها الله –تعالى– في قوله: **{اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم}** فذكر المراتب الأربعة وهي الوجود العيني الخارجي الذي هو خلقه، وذكر الوجود الرسمي المطابق للفظ الدال على العلمي، فمذهب ابن حزم أن القرآن في المراتب الثلاثة مخلوق، وهو وجوده العيني واللفظي والرسمي، ولكن الأولى بالتسمية بالقرآن وهو وجوده العيني، بقي عنده المعنى القديم فهو غير مخلوق كالعلم.

وقول الناظم بخلاف قول ابن الخطيب فإنه قد قال: إن الوضع للأذهان، فالشيء شيء واحد لا أربع، يعني عَكْس، عَكَس تمامًا، ابن الخطيب وهو الرازي محمد بن عمر المفسر المعروف صاحب التفسير، وصاحب المطالب وغيرها من الكتب، والمحصول، فالشيء شيء واحد لا أربع فدهى ابن حزم قِلَّتُ العِرفان، وقول الناظم بخلاف قول ابن الخطيب، أي أن قول ابن الخطيب أي الفخر الرازي قال: إن الكلام موضوع لما في الذهن، وهو المعنى النفسي على ما هو معروف من مذهب الأشاعرة، وإنه معنى واحد، والله أعلم.

ثم قال الناظم –رحمه الله تعالى–:

والله أخبـــر أنـــه ســـبحانه ... مـــتكلم بـــالوحي والفرقـــان
وكـذاك أخبرنـا بـأن كلامـه ... بصـدور أهـل العلـم والإيمـان

{بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم}.

وكـذاك أخبـر أنـه المكتـوب فـي ... صـحف مطهـرة مـن الـرحمن
وكـذاك أخبـر أنـه المتلـو والـ ... مقـروء عنـد تـلاوة الإنسـان
والكـل شـيء واحـد لا أنـه ... هـو أربـع وثلاثـة واثنـان
وتـلاوة القـرآن أفعـال لنـا ... وكـذا الكتابـة فهـي خـط بنـان
لكنمـا المتلـو والمكتـوب وال ... محفـوظ قـول الواحـد المنـان
والعبـد يقـرؤه بصـوت طيـب ... وبضـده فهمـا لـه صـوتان

فهما له: يعني للعبد صوتان: صوت طيب وصوت غير طيب.

وكـــذاك يكتبـــه بخـــط جيـــد وبضـــده فهمـــا لـــه خطـــان

يعني للعبد.

أصـــواتنا ومـــدادنا وأداتنـــا والـــرق ثـــم كتابـــة القـــرآن

ولقد أتـى فـي نظمـه مـن قـال قـو ل الحـق فيـه وهـو غيـر جبـان

يعني القحطاني في نونيته.

إن الذي هو في المصاحف مثبت بأنامـــل الأشـــياخ والشُّـــبَّان

هـــو قـــول ربـــي آيُـــه وحروفـــه ومـــدادنا والـــرَّق مخلوقـــان

بخلاف من غلا في الإثبات وقال كل ما يتصف بالقرآن قرآن، معه قديم منذ وُجد، يعني لو تذهب بنسختك ومصحفك وتجلده اليوم عند المُجَلِّد ويخرج غدًا أو بعد غد من المجلِّد، الجلد هذا موجود مع وجود الكلام، هذا يمشي على أحد؟ أقول: هل مثل هذا يمشي على أحد؟ يعني الحديد الذي وُضع على المقام -مقام إبراهيم يعني- غُيِّر مرارًا، الجديد هذا يأتي من يتمسح به نقول: هذا حديد خرج من المصنع قريبًا لا ينفع ولا يضر، لا قيمة له، هذا جِيء به من مصنع، لكن المبتدع الذي أُشرب قلبه حب البدعة ماذا يقول؟ وقد سمعته بأُذني وأنا قلت له الكلام، قال: هذا عندكم ما ينفع، لكن عندنا ينفع -نسأل الله السلامة والعافية- فاعتقد النفع والضر من غير الله -جلَّ وعلا- -نسأل الله السلامة والعافية-، فالعقول إذا أخذها باريها قال عمر -رضي الله عنه- لما قال: أين عقولنا لما كنا نعبد التمر فإذا جِعْنا أكلناه، قال: أخذها باريها، يعني العقل لا يستقل لا يمكن أن يستقل بإدراك الحق، لا بد له من قائد يقوده وهو الشرع، وإلا ما كان هناك فائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، فمثل هذا -نسأل الله السلامة والعافية- إذا غُطِّيَت العقول بغشاوة البدعة يندر أن تصل إلى الحق إلا بتوبة نصوح يقول:

فشـفى وفـرَّق بـين متلـوٍّ ومصـ ـــنوع وذاك حقيقـــة العِرفـــان

الكـــل مخلـــوق ولـــيس كلامـــه المتلـــو مخلوقـــا همـــا شـــيئَان

بقي مسألة اللفظ بالقرآن، المسألة العظمى التي تكلم بها السلف، رموا من قال: إن لفظي بالقرآن مخلوق بالبدعة أن من قال: القرآن مخلوق كافر، ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق لا شك أنه مبتدع عندهم؛ لأن هذا كلام لم يقله النبي -عليه الصلاة والسلام- ولا قاله سلف الأمة، وهو في الحقيقة يحتاج إلى تفصيل، يقول:

الكـــل مخلـــوق ولـــيس كلامـــه المتلـــو مخلوقًـــا همـــا شـــيئان

فعليـك بالتفصـيل والتمييـز فـالإ طـــلاق والإجمـــال دون بيـــان

قـد أفسـدا هـذا الوجـود وخـبَّط الـ أذهـــان والآراء كـــل زمـــان

وتـــلاوة القـــرآن فـــي تعريفهـــا بـــاللام قـــد يُعنـــى بهـــا شـــيئان

التلاوة التلاوة يعنى بها شيئان يُعنى بها المتلو المقروء فهو كلامه، هذا كلام الله –جلَّ وعلا– إذا قلنا التلاوة المراد بها المتلو.

يُعنى بها المتلو فهو كلامه ... هو غير مخلوق كذي الأكوان
ويراد أفعال العباد كصوتهم ... وأدائهم وكلاهما خلقان
هذا الذي نصت عليه أئمة الـ ... إسلام أهل العلم والعِرفان
وهو الذي قصد البخاري الرضى ... لكن تقاصر قاصر الأذهان
عن فهمه كتقاصر الأفهام عن ... قول الإمام الأعظم الشيباني
في اللفظ لمّا أن نفى الضدين ... عنه واهتدى للنفي ذو عرفان

الإمام أحمد –رحمه الله– يقول: ما نقول لفظي بالقرآن مخلوق ولا غير مخلوق، ما نقول هذا، هل معنى هذا أنه توقف في أفعال العباد أنها مخلوقة لله –جلَّ وعلا–؟ لا إنما هو حسم للمادة وسد للباب واحتياط للاعتقاد الصحيح؛ لأنك إذا قلت: لفظي بالقرآن مخلوق واللفظ محتمِل، قد يسمعها شخص فيلقيها على إطلاقها، لكن البخاري صرح بأن لفظي بالقرآن مخلوق باعتبار أنه كلامي والإمام أحمد سد الباب –رحمه الله– باعتبار أنه يحتمل أنه اللفظ الذي هو صوت القاري، ويحتمل أنه الملفوظ المقروء المتلو، وهو كلام الله –جلَّ وعلا– ومادام الاحتمال قائمًا يُسد الباب كغيرها من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى بيان، التلفظ ما يحتمل الملفوظ.

فاللفظ يصلح مصدرًا هو فعلنا ... كتلفظ بتلاوة القرآن
وكذاك يصلح نفس ملفوظ به ... وهو القرآن فذاك محتملان
فلذاك أنكر أحمد الإطلاق في ... نفي وإثبات بلا فرقان

مسألة اللفظ التي امتحن من أجلها الإمام البخاري لما دخل نيسابور واستقبله أهلها بقضهم وقضيضهم، وغار منه بعض أهل الحديث الذين كانت لهم حظوة عند قومهم، لا شك أن مثل هذا يثير الغيرة في نفوس بعض الناس وهو في نفوس الأتباع أشد، يعني قد تجد الإمام الكبير يأتي عالمًا ويجتمع الناس حوله، ويترك هذا العالم برهة حتى ينصرف هذا الطارئ ولا يؤثر في نفسه بقدر ما يؤثر في نفوس الأتباع، وجُلُّ هذه الأمور والتحرشات والمشاكل التي حصلت إنما هي من الأتباع، يعني في قصة الإفك –على سبيل المثال– زينب بنت جحش هل دخلت في الإفك؟ وهي التي تسامي عائشة ما دخلت، وإنما دخلت أختها حمنة؛ انتصارًا لها، فالإشكال أكثر ما يأتي من الأتباع وتجد الخلاف في القديم والحديث، الرؤوس الكبار هؤلاء ما بينهم إشكال لا سيما في المسائل التي لا يضلل القائل بها ما بينهم مشكلة، لكن هؤلاء الأتباع يغارون على شيخهم ويرون أنه غُمِر ويخشى أن يسحب البساط من تحته كما يقولون، ثم يغارون عليه ويأخذون في الكلام الذي يثير ما في كوامن النفوس؛ فلذلك الذُّهْلِي –وهو إمام أهل نَيْسَابُور إمام

عالم جليل من كبار المحدثين، إمام من أئمة المسلمين– لما البخاري قال: لفظي بالقرآن مخلوق، والإمام الذهلي –رحمه الله– يحتاط لهذه المسألة مثلما يحتاط الإمام أحمد، فصار بينهما من العداوة ما صار، والأتباع أيضًا استغلوا مثل هذا الخلاف وهذا الظرف الذي سحب الأنظار عن شيخهم، فحصل ما حصل، وامتُحِن البخاري وطُرد من نيسابور.

على كل حال مثل هذه الأمور تحصل قديمًا وحديثًا، لكن الراسخ يرجع إلى ما في الكتاب والسنة ويجعل قائده وسائقه النص ولا ينظر إلى الأتباع؛ لأن الأتباع يأتون وما زالوا يأتون إلى الشيوخ قال فلان وفعل فلان وترك فلان، ويُغْرُوْنهم ويؤثرون عليهم، ويبقى الكبار كالجبال الرواسي وإن حصل ما حصل من الأتباع.

فلـذاك أنكـر أحمـد الإطـلاق فـي نفـــي وإثبـــات بـــلا فرقـــان

على كل حال الكلام في هذه المسألة طويل جدًا ولعلنا أتينا على أطرافه، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.